

## 7. التصوف:

إن جوهر التصوف يقود إلى حقيقة ومعنى التصوف بأن يتنزه الإنسان عن حب الذات والتوجه وحث النفس للبحث والسعي وراء الحقيقة بالمحبة والإخلاص المتفاني، وهو ما يدعى بالطريقة التي تعتبر طريقاً روحانياً إلى الله، فالشخص المتصوف يعتبر إنساناً مُحباً للحق ويسعى من خلال المحبة والتقوى لبلوغ التمام الذي يبحث عنه كل إنسان، وتعد الصوفية مدرسة باحثة عن القيم المساوية وتنقيف النفس ليس بالإثبات العقلاني وإنما عن طريق الوحي والإقرار بذلك بحيث لا يستند على منطق معين.

### أ- التصوف (المصطلح والمفهوم):

نبدأ هذا من رأي القدماء، حيث سئل الشبلي<sup>92</sup> رضي الله عنه لم سميت الصوفية بهذا الاسم؟ فقال: «هذا الاسم الذي أطلق عليهم، اختلف في أصله وفي مصدر اشتقاقه، ولم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعد»<sup>93</sup> ومن أقدم الآراء التي قيلت ما ذكره البيروني<sup>94</sup>: «من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة سوف اليونانية التي تعني الحكمة. يقول البيروني: «إن من اليونانيين من كان يري الوجود الحقيقي لليلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه وحاجة غيرها إليها، وأن ما هو مفترق في الوجود إلى غيره؛ فوجوده كالخيال غير حق. والحق هو الواحد الأول فقط وهذا رأي السوفية وهم الحكماء، فإن "سوف" باليونانية الحكمة و بها سمي الفيلسوف: فيلا سوفيا، أي محب الحكمة»<sup>95</sup>.

أما المحدثون فقد اختلف في ذلك اختلافاً كبيراً ووضعت فروض متعددة، وليس بعضها أولى من بعض، وكلها غير مقبولة. «إنها في الحقيقة تسمية رمزية، وإذا أردنا تفسيرها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها وأنه لمن الرائع أن نلاحظ: أن القيمة العددية لحروف صوفي تماثل القيمة العددية لحروف: الحكيم الإلهي، فيكون الصوفي الحقيقي إذن، هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية، إنه العارف بالله، إذ أن الله لا يعرف إلا به، و تلك هي الدرجة العظمى فيما يتعلق بمعرفة الحقيقية»<sup>96</sup>. وقد انفرد الشيخ عبد الواحد يحيى - فيما نعلم بهذا الرأي - وهو رأي لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية، ولكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية، قد يقبله قوم دون برهان، وقد ينكره قوم آخرون من غير ما حجة ولا دليل. وإذا تركنا الشيخ عبد الواحد؛ لننظر إلى الباحثين في هذه اللفظة فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث

92 هو الشيخ الزاهد أبو بكر بن جعفر بن يونس الشبلي، ولد في سامراء عام 247هـ، الموافق 861م، توفي ليلة السبت 27 من ذي الحجة عام 334هـ، الموافق 945م.

93 القشيري، الرسالة القشيرية، مكتبة صبيح وأولاده، القاهرة - مصر، سنة 1965، ص 4.

94 أبو الريحان محمد بن أحمد بيروني عالم مسلم ولد في ضاحية عاصمة خوارزم أوزبكستان في شهر سبتمبر حوالي سنة، 326هـ، 973م رحل إلى جرجان في سن ال 25 حوالي 388هـ 962م حيث التحق ببلاط السلطان أبو الحسن قابوس بن شمس المعالي ونشر هناك أولى كتبه وهو الآثار الباقية عن القرون الخالية و حين عاد إلى موطنه الحق بنحاشية الأمير ابي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه الذي عهد إليه ببعض المهام السياسية نظراً لطلاقة لسانه و عند سقوط الامارة بيد محمود بن سبكتكين حاكم غزنة عام 407هـ الحقه مع طائفة من العلماء إلى بلاطه و نشر ثاني مؤلفته الكبرى تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة كما كتب مؤلفين آخرين كبيرين هما القانون المسعودي التفهيم لأوائل صناعة التنجيم توفي سنة، 440هـ ( 1048م و اطلق عليه المستشرقون تسمية بطليموس العرب / انظر تاريخ التصوف الاسلامي . د / بدوي.

95 جميل محمد ابو العلا، التصوف الاسلامي نشأته واطواره، مطبعة النهضة، القاهرة - مصر، سنة 1894، ص 15.

96 عبد الحليم محمود، المنقذ من الضلال، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، سنة 1985، ص 156.

لهما، يجاري فريق منهم أبا الريحان البيروني في أنها مأخوذة عن أصل يوناني، هي كلمة سوفيا اليونانية. وقد ذهب إلى هذا الرأي "فون هامر"<sup>97</sup> من المستشرقين - واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين، وأيده في حرارة محمد لطفي جمعة - بقوله: «أما السبب الذي جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف فهو أنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية؛ وينسبها إلى الظاهر والشكل على حد تعبير محمد لطفي جمعة " : يجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الإسلام من صفة الحكمة و الفضيلة»<sup>98</sup>.

الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين إن - لفظة التصوف تنتسب إلى الصوف، وكما أنه يقال: تقمص إذا لبس القميص، كذلك يقال تصوف إذا لبس الصوف، ومن أبرز القائلين بهذا الرأي: المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرزاق، والمرحوم الدكتور زكي مبارك، والمستشرق "مرجليوت". و إذا كانت الكلمة تنتسب إلى الملبس - وهو مظهر وشكل ورسم - فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر أو شكل. ليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلي للاسم هو المراد مما وضع الاسم له، إذ المعنى الأصلي قد يتطور ويتغير و يختلف؛ وقد يقصد عكسه، ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه.

## ب- إله المتصوفة:

التصوف كسلوك زهدي بدأ في الثقافة الإسلامية منذ البدايات الأولى للاحتكاك مع الثقافة المسيحية في مصر وبلاد الشام، ومع الثقافات المشرقية الأخرى فيما بين فارس وحدود الصين. أما المعتقد الصوفي، فرغم أن ملامحه الأولى قد تشكلت على يد متصوفة من أمثال الجنيد منذ أواخر القرن الثالث الهجري، إلا ان صياغته النظرية المتسكة لم تكتمل حتى القرن السادس الهجري، وذلك على يد الغزالي ومحي الدين ابن عربي، ومن بعدهما عبد الكريم الجيلي في القرن السابع.

يجري الفكر الصوفي لقاء كاملاً بين مفهومين للألوهية سارين في كتاب الله وسنة رسوله، المفهوم الأول يأتي من آيات مثل: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾<sup>99</sup> و ﴿مكروا ومكر الله، والله خير الماكرين﴾<sup>100</sup> والمفهوم الثاني يأتي من آيات مثل: ﴿ونحن أقرب إليكم منكم ولكن لا تبصرون﴾<sup>101</sup> و ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾<sup>102</sup> ومن أحاديث قدسية مثل: و«ما وسعتني سائئ ولا أرضي ووسعتني قلب عبدي المؤمن» الذي يذكرنا بقول الأوبانينشاد: «هو رب اليوم ورب الغد، ولكن القلب الذي بحجم إصبع الإبهام مقر له ومكان»<sup>103</sup> واللقاء بين هذين المفهومين في الفكر الصوفي يأتي من وحدتها الضمنية، واختلافها في الظهور والتجلي، وذلك أن الأصل في الألوهية الكمون والغنى، وما درجات التشخيص التي تتجلى بها سوى أمر اقتضاه ظهور الكون عنها؛ فالموجودات

97 مستشرق الماني ولد عام 1749م، كنب مقدمة ترجمة القرآن، من اقواله: القرآن ليس دستور الاسلام لحسب بل هم ذروة بيان العرب.

98 عبد الحليم محمود، المنقذ من الضلال، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، سنة 1985، ص 156.

99 سورة الفتح، الآية 10.

100 سورة آل عمران، الآية 45.

101 سورة الواقعة، الآية 75.

102 سورة العنكبوت، الآية 06.

103 فراس السواح: دين الإنسان، ص 293.

هي التي تتطلب من الأوهية الصفات والأسماء، وبغير الموجودات تبقى الأوهية ذاتا مستغرقة في نفسها. لقد أورد فراس السواح قولاً لعبد الكريم الجيلي في كتابه الإنسان الكامل يعبر عن ذلك حيث يقول: «إن ذات الله سبحانه وتعالى عبارة عن نفسه التي هو بها موجود، لأنه قائم بنفسه... فالذات لاتدرك بمفهوم عبارة، ولا تفهم بعلوم إشارة؛ لأن الشيء إنما يفهم بما يناسبه فيطابقه، أو بما ينافيه فيضاده. وليس لذاته في الوجود مناسب ولا مطابق ولا مناف ولا مضاد. فارتفع من حيث الإصطلاح إذن معناه في الكلام، وانتهى بذلك أن يدرك للأنام. المتكلم في ذات الله صامت، والناظر باهت. عز أن تدركه العقول والأفهام، وجل أن تجول فيه الفهوم والأفكار، لا يتعلق بكنهه حديث العلم ولا قديمه... وهذا الوجود المطلق هو الذات الساذج الذي لا ظهور فيه لإسم أو نعت أو اسم أو إضافة، ولا لغير ذلك».<sup>104</sup>

المرتبة الأولى في خروج الأوهية عن كونها وغناها، يؤشر إليها ظهور الممكنات فيها جميعاً، ولكن بحكم البطون لا بحكم البطون لا بحكم الظهور. فكل ما سيظهر للوجود فيما بعد، كان في حيز الممكن الثابت في الإلهية الغنية. فهنا يتجلى المطلق في نفسه ولنفسه، وتتأمل الأوهية نفسها دون أن تلحقها الاعتبارات والإضافات. ويدعى هذا التجلي الأول للذات بالأحدية.

والتخصيص هو أن تدبر الأوهية وجهها نحو الخارج وتخرج عن بطونها وكونها، فتنقل بذلك إلى التجلي الثاني المدعو بالأوهية، وهو الذي يظهره نشوء الثنائيات ضمن الأحدية وهنا يظهر الإسم "الله"، وهو الإسم الذي يبصر الحق به نفسه، ويتوصل الخلق به إلى معرفة الأوهية.

فالأوهية والحالة هذه هي برزخ بين الذات الكامنة والخلق الذي يصدر عنها، إنها مرتبة الذات من حيث كونها إلهاً يعبد ويقدر، من خلالها يتوصل العقل إلى معرفة الأوهية. وعندما تدخل الأوهية طور الخلق، تأتي إلى تجلي الرحمانية؛ وهنا تتجلى الأوهية كقدرة خالقة لكل مظاهر الكون. إلا أن الخلق هنا ليس خلق صانع ماهر يشكل العالم بيديه، وإنما خلق أوهة تنقسم إلى حق وخلق. دون أن تفقد وحدتها وتكاملها. وهذان المصطلحان اللذان يتكرران في الأدبيات الصوفية كلها، يشيران إلى المظهر المزدوج للحقيقة الواحدة؛ فالوجود خلق من حيث مظهره، وحق أو أوهة مولدة من حيث جوهره. ويتطلب الخلق عند الجيلي أولاً، أن تظهر الأوهية بمحقات أسائها وصفاتها، فتظهر أولاً بالأسماء الذاتية المقصورة على الحق؛ مثل الصمد والقيوم وما إليها، ثم تظهر بأوصافها العامة التي تشترك بها مع الخلق مثل السميع والبصير وما إليها.<sup>105</sup>

فانقسام الأوهة إلى حق وخلق، وصدور المخلوقات عنها دون أن تفقد وحدتها وتكاملها، يشبهه الجليد أو الثلج الذي يتكون على أطراف البحيرة أو سطحها؛ فهذا الثلج إذا نظر إليه من حيث ظاهره بدا شيئاً مختلفاً عن الماء، وإذا نظر إليه من حيث جوهره بدا عين الماء؛ فاسم الثلج والحالة هذه هو اسم مؤقت لطور عابر يصير إليه الماء فإذا ذاب الثلج عاد إلى أصله واسمه.

آخر مجالي الأوهية هو الربوبية؛ وهو المجلي الخارجي المختص حصراً بعالم الخلق، والرب اسم لهذه المرتبة. ويقع تحت هذا الإسم كل الأسماء التي يتطلبها وجود المخلوقات مثل؛ المرید والملك والقهار والمجيب والمعز والمذل... فإذا كانت الذات تمثل بطون الأوهية المطلق وغناها الكامل عن العالمين، فإن الربوبية هي ظاهر الأوهة.

104 المرجع نفسه، ص 294.

105 المرجع نفسه، ص 296.

الذي يتجه نحو عالم الخلق ويتطلبه. إن وحدة هذين التجليين للربوبية تظهر ذوقاً لمن ينجيهم الحق، فيسمع المناجي خطاباً لا يصدر عن جهة ولا عن جرح: «أنت خلاصة الأكوان والمقصود بالوجود والحدثان، تقرب إلى شهودي فقد تقربت إليك بوجود، لا تتعد فيني إنا الذي قلت ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. لا تتقيد باسم العبد فلولا العبد ما كان الرب؛ أنت أظهرتني كما أنا أظهرتك، فلولا عبوديتك لم تظهر لي ربوبية، أنت أوجنتني كما أنا أوجدتك، فلولا وجودك ما كان وجودي موجوداً».<sup>106</sup>

### ج- مراتب الصوفية:

مراتب الصوفية، التي وضعها لبيان طبقات المتصوفة ومكاتبهم، وقدرتهم واختيارهم على الخلق، وأعدادهم، وهم حسب كلام لسان الدين بن الخطيب: «خواص الله في أرضه، ورحمة الله في بلاده على عباده: الأبدال، والأقطاب، والأوتاد، والعرفاء، والنجباء، والنقباء، وسيدهم الغوث».<sup>107</sup> ولدى الهجويري هم: «أهل الحل والعقد، وقادة حضرة الحق جل جلاله، فثلاثمائة يدعون الأخيار، وأربعون آخرون يسمون الأبدال، وسبعة آخرون يقال لهم: الأبرار، وأربعة يسمون الأوتاد، وثلاثة آخرون يقال لهم: النقباء، وواحد يسمى القطب والغوث. وهؤلاء جميعاً يعرفون أحدهم الآخر، ويحتاجون في الأمور لإذن بعضهم البعض».<sup>108</sup>

✓ **مرتبة القطبية:** ولا يكون فيها أبداً إلا واحد بعد واحد، ويسمى غوثاً، لكونه مغيثاً للخلق في أحوالهم.

✓ **ثم مرتبة الإمامين:** وهما كالوزيرين للسلطان. أحدهما صاحب اليمين، وهو المتصرف بإذن القطب في عالم الملكوت والغيب، وثانيهما صاحب اليسار، وهو المتصرف في عالم الملك والشهادة. وعند إرتحال القطب إلى الآخرة، لا يقوم مقامه، منها وإلا صاحب اليسار، لكونه أكمل في السير من صاحب اليمين: لأنه، بعد، ما نزل في السير من عالم الملكوت إلى عالم الملك، وصاحب اليسار نزل إليه، وكملت دايرته في السير والوجود.

✓ **ثم مرتبة الأربعة:** كالأربعة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين!

✓ **ثم مرتبة البدلاء السبعة:** الحافظين للأقاليم السبعة. وكل منهم قطب للإقليم الخاص به.

✓ **ثم مراتب الأولياء العشرة:** كالعشرة المبشرة.

✓ **ثم مراتب الاثني عشر:** الحاكمين على البروج الاثني عشر، وما يتعلق بها ويلزمها من حوادث الأكوان.

✓ **ثم العشرين والأربعين والتسعة والتسعين،** مظاهر الأسماء الحسنى، إلى الثلاثمائة والستين.

✓ **وهؤلاء قائمون في العالم على سبيل البدل، في كل زمان، ولا يزيد عددهم ولا ينقص إلى يوم القيامة.** وغيرهم من الأولياء يزيدون وينقصون، بحسب ظهور التجلي الإلهي وخفائه.

106 فراس السواح: دين الإنسان، ص ص 297-298.

107 لسان الدين ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق محمد الكفاني، دار الثقافة، الطبعة الأولى، سنة 1970، بيروت - لبنان، ص 432.

108 الهجويري: كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة وتقديم بدیع جمعة، الجزء الثاني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة - مصر،

سنة 2007، ص ص 447-448.

✓ وبعدهم: مرتبة الزهاد والعباد والعلماء من المؤمنين، الكائنين في كل زمان إلى يوم الدين. وجميع هؤلاء المذكورين، داخلون في حكم القطب.

والأفراد الكمل، الذين تعادل مرتبتهم مرتبة القطب إلا في الخلافة، هم الخارجون من حكمه. فإنهم يأخذون من الله، سبحانه، ما يأخذون من المعاني والأسرار الإلهية بخلاف الداخلون في حكمه، فإنهم لا يأخذون شيئاً إلا منه.

### III. المعتقدات الدينية والحياة المعاصرة:

#### 1. الممارسات السحرية جزء من الاعتقاد الديني:

##### أ- السحر:

السحر في لغة العرب يطلق على كل شيء خفي سببه ولطف ودق، ولذلك تقول العرب في الشيء الشديد الخفاء: أخفى من السحر، وتصف ملاحاة العينين بالسحر، لأنها تصيب القلوب بسهامها خفاء، كما يوصف البيان بالسحر، ومنه قول الرسول: «ومن البيان لسحراً»، وإنما كان بعض البيان سحراً لأنه يروق للسامعين، ويستميل قلوبهم، ويغلب على نفوسهم، ويجول الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن وجهته، وسمي السحور سحوراً لأنه يقع خفياً آخر الليل؛ وتطلق العرب السحر على الخديعة، لأنه يخفى سببها ويدق.<sup>109</sup>

السحر في الاصطلاح: «هو اسم لكل أمر خفي سببه، وتخيل على غير حقيقته، وجرى مجرى التمويه والخداع». وعرفه ابن عابدين بقوله: «علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة لأسباب خفية». وعرفه ابن خلدون تعريفاً قريباً من التعريفين السابقين فقال: «السحر علوم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على التأثير في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر والثاني الطلسمات».<sup>110</sup>

يذهب الباحث الألماني أدولف آرمان، المتخصص في المصريات، في كتابه ديانة مصر القديمة إلى أن «السحر نبت وحشي في واحة الدين. وهو عمل يهدف إلى التغلب على القوى التي تتصرف في مصير الإنسان. وإنه من الخير أن تتعرف كيف يمكن أن ينشأ الاعتقاد بإمكان القيام بمثل هذا العمل قد يبدو أن الإله قد استجاب للدعاء تارة ولم يستجب إلى الدعاء تارة أخرى، وعند ذلك يطرأ قسراً على الفكر أن العبارة التي صيغ فيها الدعاء أول مرة قد لقيت عند الإله قبولا خاصاً؛ لذلك يعد هذا التركيب أفضل تركيب من نوعه ويغدو صيغة لا يلبث الإنسان أن يعتقد أنّ لها مفعول لا يخيب، وأنها تقهر القدر»<sup>(111)</sup>.

109 سليمان الأشقر: عالم السحر والشعوذة، دار النفائس للنشر والتوزيع، الطبعة الرابع، عمان- الأردن، سنة 2002، ص ص 69-70

110 أورد هذه التعريفات سليمان الأشقر في كتابه: عالم السحر والشعوذة، مرجع سابق، ص 72.

111 أدولف آرمان. ديانة مصر القديمة، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997)،

وفي معجم الحضارة المصرية القديمة تحت مادة سحر ترد القصة التالية التي تقول بأنه «عقدت مباراة بين النبي موسى وسحرة الفرعون فدمرهم بسبب خداعهم بأن ألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبین ابتلع ثعابينهم فحروا له ساجدين. وما أسرار المقابر الملكية المروعة وقصص الخوارق إلا خزعات، رغم رسوخ الاعتقاد بجلول لعنة الفراعنة على منتهكي حرمة المقابر. وجعلت هذه الأمور مصر القديمة دولة السحر. والحقيقة أنّ السحر كان يحكم في أرض الفراعنة، وليست الأسطورة التي أسكنت وادي النيل بالسحرة خطأ؛ والبرهان على هذا متيسر، إذ تدلّ القصص الشعبية والتأئم وتلك التعاويذ المكتوبة التي تملأ خزائن المتاحف على أن السحر جاء واستقر في أرض السحرة»<sup>(112)</sup>.

يشير إلى أنّ «السحر كان أولاً وقبل كل شيء إيماناً مطلقاً بالقوة الخارقة للصوت، ولم يعتبر الشخص البدائي اسم الكائن الحي أو الجسم وسيلة لتسهيل تبادل الآراء بين الناس بل اعتبره الكائن الحي أو الشيء نفسه. إنه بمجرد النطق باسم ما كان يخلق ذلك المخلوق أو الشيء. وتزخر قصص الخليفة بفقرات تنص على أنه ليس على الخالق إلا أن ينطق باسم كل عنصر من مكونات الخلق حتى يبادر ذلك العنصر في الحال بأن يأخذ مكانه المحدد»<sup>113</sup>.

تجدد الإشارة هنا إلى أنّ لاهوت "منف" تعتقد أن الإله الخالق "بتاح" أو "فتاح" بالتفكير في الخلق بقلبه ثم ينطق ذلك بلسانه فيتكوّن الخلق والعالم والكون. وهي نظرية الخلق بواسطة الكلمة والتي تعرف في الثقافة الإسلامية بـ«كن فيكون».

ويذهب روبرت جاك تيبو الباحث الفرنسي في المصريات ومؤلف موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية إلى اتجاه يرى فيه «أن مصر القديمة كانت تضم العديد من الكهنة السحرة ولكن ليس بالمعنى المفهوم في عصرنا الحالي. فالكاهن الساحر<sup>(114)</sup> كان مجرد مفسر ومترجم لدى الآلهة، أو أنه كان المتحدث بلسان الآلهة ولكنه لا يستطيع أن يضع أي شيء خارج نطاق العالم ولا يمكنه تحويل المادة لفائده أو لمنفعته الشخصية أو حتى لصالح المجموع. ويرى أنه على الرغم مما يحظي به الفرعون من قوة ومقدرة فإنه لا يستطيع أن يكون هو نفسه ساحراً مع أنه يتمتع بنفوذ مادي على الكائنات. فهو في البداية كان خادماً للحقيقة والعدل؛ وبالإضافة إلى ذلك فهو الوسيط والشفيع بين السماء والبشر؛ وبهذا فإنه من خلاله شخصياً تستطيع الآلهة أن تكشف عن قدرتها وهبتها. وكان ذلك أيضاً وضع الرسل والنسك»<sup>(115)</sup>.

112 جورج بونزو وآخرون. معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة: أمين سلامة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996)، ص 187.

113 راجع في المعنى اللغوي: لسان العرب: 2/106. والقاموس المحيط ص 519.

114 صفة الكاهن الساحر، تعني العلم بالأمور. انظر:

## ب- نشأة السحر:

يُرجع روبرتسن سميث (Robertson Smith) ظهور السحر إلى عصور التفكك الاجتماعي عند الإنسان البدائي ويرى أن «الدين باعتباره شيئاً آخر غير السحر والشعوذة؛ فهو يخاطب الأفراد المقربين وينصب علي كيانات ودودة قد تغضب أحياناً على قومها ولكنها دائماً تتسم بالساحة باستثناء الأعداء أو المارقين على المجتمع». ويضيف بأن الدين الحقيقي لا يبدأ بخوف غامض من قوي مجهولة بل بتقديس ودي لآلهة معروفة ترتبط مع أتباعها بعلاقات وثيقة. ويشير إلى «أن قوي السحر الغيبية القائمة علي الرعب والطقوس التي تهدف الي مهادة الآلهة الغريبة لم تبدأ في غزو الدين القبلي أو القومي إلا في عصور التفكك الاجتماعي»<sup>(116)</sup>.

يرى الباحثون في الأنثروبولوجيا وتاريخ الأديان أن هناك تداخلاً بين السحر والدين سواء في النشأة أم في استراتيجية العمل. يشير بعض الباحثين إلى أن السحر والدين نشأ معاً حيناً واجه الإنسان الأول الطبيعة وغوامض الكون وسعى إلى محاولة تأمين حياته. ومن أقدم أشكال سعيه لحماية نفسه وتأمين بقائه في عالم غير محتم بوجوده وغير مكترث لموته ولا يدري عن الصعوبات التي تواجهه؛ فحاول ذلك الإنسان النفاذ إلى مكونات الغوامض التي واجهه به العالم؛ ومن تلك المحاولات سعى لدرء الشر مما يعتقد أنه خطر يترص به من قوي فوق طبيعية ومحاولة الانتقال من مرحلة استرضائها لتكون معه لا عليه. ومن المسعى الأول في درء الشر نشأة السحر ومن المسعى الثاني في الاسترضاء نشأة الدين. لقد بدأ السحر والدين معاً لكن انفصلهما كان محتوماً؛ فرغم أنها نشأ بسبب خوف الإنسان وفضول هو نزوعه نحو القوة وسعيه إلى تأمين بقائه وإشباع حاجاته إلا أن اختلاف مقومات كل منها أدى إلى قيام الصراع بينهما.

يشار إلى أن كلا من السحر والدين يؤمنان للإنسان الأدوات التي تمكنه من فرض نوع من التحكم بالظواهر الطبيعية وجعلها تعمل لصالحه وتتيح له في الوقت ذاته التعامل مع قوى خفية آمن بوجودها باعتبارها تكن في الظواهر الطبيعية كلها. فالسحر يتضمن تجسيدا لاعتقاد الإنسان بأنه قادر على التحكم في ظواهر الطبيعة، وهي ظواهر يشترك السحر مع الدين في الاعتقاد بمرونتها وقابليتها للتحكم والتعديل. في حين أن الدين يجسد اعتقاد الإنسان بأنه أضعف شأناً من أن يتحكم في ظواهر الطبيعة أو يستغل مرونتها وقابليتها للتعديل لصالحه؛ وهو اعتقاد يجعله يتنصل من طاقة السحر والاكتفاء بمحاولة الوصول إلى القوى العليا عن طريق ممارسة طقوس معينة كالصلاة والشعائر في محاولة لاسترضاء القوى العليا التي يعتقدونها لكي تعمل تلك القوى لحسابه في التحكم في ظواهر الطبيعة فتجلب له الخير وتكف عنه أذى القوى الخفية الشريرة.<sup>(117)</sup>

وعلى الرغم من العنصر المشترك بين السحر والدين في أنهما يؤمنان بقوى خفية تسيطر على الكون وتتحكم به إلا أن الفرق هو في وسيلة الاتصال بتلك القوى. وبسبب هذا التقارب بينها نشأ الصراع الذي كان له طابع التنافس في البداية وما لبث أن تحوّل مع الزمن والأجيال إلى نوع من العداء المستحکم جعل الدين يُحرّم السحر ويُحرّم التعامل معه. ومن وجهة نظر الدين الإسلامي فإنّ السحر نشأ من مصدر ساوي. فالملك هاروت وماروت<sup>(118)</sup> نزلوا من السماء وهما يميلان معهما السحر في مدينة بابل. وتعلم منها الناس السحر الذي ينفع مع التحذير من الفتنة المرتبطة بذلك السحر.

### ج- السحر عند بن خلدون:

يشير ابن خلدون في مقدمته إلى أن «علوم السحر والطلسمات 119 هي علوم بكيفية تقتدر النفوس بها على التأثيرات في عالم العناصر؛ إما بغير معين أو بمعين من الأمور المساوية . والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات»<sup>(120)</sup>. وهو يشير هنا إلى نوعين من السحر وكأن الطلسمات نوع من أنواع السحر يبدو أنه يحمل شفرة أقل درجة مما يحمله السحر ذاته.

118 قال الله تعالى: {وَأْتَعُوهُمَا تَتَلَوُ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: 102].  
القصة:

والقصة: أن اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة والشعوذة التي كانت تُقرأ في زمن ملك سليمان عليه السلام. وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمنون إلى ما سمعوا أكاذيب يلقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها في كتب يقرؤونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك في زمان سليمان عليه السلام، حتى قالوا إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون هذا علم سليمان عليه السلام، وما تمّ لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الجن والإنس والطير والريخ، فأنزّل الله هذين الملكين هاروت وماروت لتعليم الناس السحر ابتلاءً من الله وللتمييز بين السحر والمعجزة وظهور الفرق بين كلام الأنبياء عليهم السلام وبين كلام السحرة. وما يعلم هاروت وماروت من أحدٍ حتى ينصحه، ويقول له إنما نحن ابتلاء من الله، فمن تعلم منا السحر واعتقده وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقّى عمله ثبت على الإيمان.

فيتعلم الناس من هاروت وماروت علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، بأن يخلق الله تعالى عند ذلك النفرة والخلاف بين الزوجين، ولكن لا يستطيعون أن يضرّوا بالسحر أحداً إلا بإذن الله تعالى، لأن السحر من الأسباب التي لا تؤثر بنفسها بل بأمره تعالى ومشيئته وخلقه.

فيتعلم الناس الذي يضرهم ولا ينفعهم في الآخرة لأنهم سخرّوا هذا العلم لمضرة الأشخاص. ولقد علم اليهود أن من استبدل الذي تتلوه الشياطين من كتاب الله ليس له نصيب من الجنة في الآخرة، فبئس هذا العمل الذي فعلوه. والخلاصة: أن الله تعالى إنما أنزلها ليحصل بسبب إرشادها الفرق بين الحق الذي جاء به سليمان وأمّم له الله به ملكه، وبين الباطل الذي جاءت الكهنة به من السحر، ليفرق بين المعجزة والسحر.

119 طلسم وجمعها طلاسم (تسمى في اللاتينية AMULETUM ولفظها في اليونانية قريب للفظ العربي، ومن العربية انتقل اللفظ إلى اللغة الإنكليزية (TALISMAN) هي خطوط وكتابات لا تحتوي على معنى واضح ومفهوم يستخدمها السحرة أو أتباع بعض المعتقدات وتكون تعويذة ما يزعم أنها تدفع كل مؤذٍ وأو تجلب الحظ السعيد. الطلاسم عادة تكون كتابة على ورق لكن أحياناً قد تشمل أحجار عليها نقوش أو رموز صلبة أو خرز وكذلك قد تشمل ما يسمى الحرز. تاريخ الطلاسم: وجدت الطلاسم لدى المشعوذين القدماء لدى المغارب؛ حضارات عديدة في الشرق الأوسط ومن بينها حضارات بلاد ما بين النهرين ومن ضمنهم السومريون والبابليين القدماء إضافة إلى الفراعنة والعرب في الجاهلية الطلاسم والفلكلور: تدخل الطلاسم في تراث العديد من شعوب العالم حيث انها كانت موجودة لدى الفراعنة على شكل عين حورس إضافة إلى وجودها في فلكلور شعوب جنوب شرق آسيا والصين وأفريقيا.

120 عبدالرحمن بن خلدون. مقدمة بن خلدون. (القاهرة: طبعة دار المعارف المصرية. كتاب الشعب، ب ت)، ص 467.

ويُفرق ابن خلدون بين السحر والدين من خلال تفريقه بين الساحر والنجي، يقول: «هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر؛ ذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع إلا أنها مختلفة بالخواص، وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية لا توجد بالصف الآخر، وصارت هذه الخواص فطرة وجبلة لصفها. فنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصة تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة وما يتبع ذلك في التأثير بالأكوان. أما نفوس السحرة فلها خاصية التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية»<sup>(121)</sup>. فهو يعطي الساحر طاقة ذاتية تجعله قادراً على التأثير في الكون من خلال ما تملكه نفسه من مقومات خاصة، في حين أن النبي يملك مقومات شبيهة بما لدى الساحر لكنها مقومات ليست ذاتية فيه وإنما وهبت له من قوى غيبية كالملائكة ليتخاطب بتلك المقومات مع القوى الغيبية ويكتسب المعرفة التي تؤهله للحصول على الطاقة التي تؤثر في الكون. ورغم أن في ذلك إعلاء من شأن الساحر بمنحه سمات غير بشرية في نفسه إلا أن ابن خلدون ينسب ذلك إلى الشيطان، يقول: «فأما تأثير الأنبياء فهدد إلهي وخاصية ربانية، ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية»<sup>(122)</sup>.

ويبدو أنه قصد بنفوس الكهنة السحرة. ومن الملاحظ على تفریق ابن خلدون بين الساحر والنجي أنه تفریق يقوم على النظر في مصدر الطاقة التي يعتمد عليها الساحر أو النجي، فمصدر الطاقة يكون الشيطان في حال الساحر ويكون الملائكة في حال النجي. ولا شك أن مصدر الطاقة سواء أكان الشيطان أم الملائكة هو مصدر غيبي يمثل قوة يعتمد عليها صاحب الفعل المنسوب إليه العمل الديني أو السحري؛ ويصعب على الباحث التثبت من المصدر عند النظر إلى طبيعة الفعل إلا من خلال نتيجته الإيجابية أو السلبية.

يقسم ابن خلدون النفوس الساحرة إلى ثلاث أنواع هي، «الأول: المؤثر بالهمة فقط من غير معين وهو ما يسميه الفلاسفة السحر. والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول. والثالث هو تأثير القوى المتخيلة ويعمد هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف بها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة وصوراً مما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائن بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤون وكأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك ويسمي هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبة»<sup>(123)</sup>.

ومن الواضح أن ترتيب أنواع النفوس الساحرة كان ترتيباً بحسب قوتها؛ فالسحر يعتبر أعلى درجة من حيث القوة باستقلالته عن المعين، في حين أن الطلسمات هي محاولة فلكية معينة ربما يكون السعي من وراءها منتجا لمعرفة مستقبلية معينة أكثر من كونه مؤثراً في الكون كما هو مع السحر. أما النوع الثالث الذي أشار إليه ابن خلدون من

121 ابن خلدون، المقدمة، ص 468.

122 ابن خلدون، المقدمة، ص 469.

123 ابن خلدون، المقدمة، ص 468.

التأثير بالخيالة أو الشعبة فهو قريب مما يعرف اليوم بعلم النفس الغيبي أو الباراسيكولوجي (Parapsychology) (124) الذي يستند على طاقة التخاطر وهي طاقة نفسية ذهنية يستطيع من يمتلكها أن يرسل من عقله رسالة تخاطرية إلى عقل آخر أو إلى عدة عقول بحيث يرون أشياء هي في الحقيقة لا تحدث ولكن هذه العقول تراها بالنظر كما لو كانت واقعة ومتحققة<sup>(125)</sup>.

#### د- منهج جيميس فريزر:

عرض جيمس فريزر (James Frezer) الباحث الأنثروبولوجي، رأيه في السحر والدين في الجزء الأول من كتابه الغصن الذهبي The Golden Bough، ثم عرضه بالتفصيل في كتاب مستقل هو الدين والسحر. يشار إلى أن فريزر من المؤمنين بتشابه الجنس البشري في كثير من السمات الأساسية في التعامل مع معطيات الحياة المختلفة؛ ولهذا فقد اعتمد على الاستنباط المستمد مما يعرف بالرواسب الثقافية<sup>(126)</sup> في المجتمعات بسبب أن موضوع السحر والدين وما ارتبط بهما من مفاهيم كالأسطورة والخرافة يرجع في نشأته إلى مراحل موعلة في القدم ويصعب الحصول على المعلومات والبيانات الدقيقة عنه لاسيما وقد اندثرت بعض مظاهر الحضارة في تلك الأزمنة. لهذا كان الاستناد إلى الرواسب الثقافية باعتبارها السمات الثقافية التي تلتكأت في سيرها و لم تتطور بنفس السرعة التي تطورت النظم في مجتمعات أخرى - وسيلة مهمة للتعرف على بعض المظاهر ذات الجذور القديمة ومنها السحر والدين.

وتتمثل هذه الرواسب الثقافية في بعض العادات التي يمارسها العالم المتحضر دون أن يدرك لوجودها سبب معين، كما يتمسك بها الناس دون أن يعرفوا معناها الأصلي. كما تتمثل في الرواسب والبقايا في النظم الاجتماعية والأنساق الثقافية السائدة في المجتمعات البدائية علي اعتبار أن هذه المجتمعات تمثل مراحل سابقة في تاريخ المجتمعات الإنسانية ككل. وجدير بالذكر أن فريزر تعامل مع مفهوم الرواسب الثقافية لكنه لم يترك تعريفا

124 يتألف مصطلح الباراسيكولوجي «ما وراء علم النفس» من شقين أحدهما الباراسي (PARA) ويعني قرب أو جانب أو ما وراء، أما الشق الثاني فهو سيكولوجي (PSYCHOLOGY) ويعني علم النفس، وفي الوطن العربي هناك من ساء الحارقة، ومن ساء علم القابليات الروحية، ومن ساء علم نفس الحاسة السادسة ولكنه ظل محتفظا باسمه لعدم الاتفاق على تسمية عربية موحدة له.

وكان الفيلسوف الألماني ماكس ديسوار عام 1889م أول من استخدم هذا المصطلح ليشير من خلاله إلى الدراسة العلمية للإدراك فوق الحسي والتحرك النفسي «الروحي» والظواهر والقدرات الأخرى ذات الصلة، وتعددت التسميات حتى أصبح يطلق عليه في كثير من الأحيان «السايب»، وللباراسيكولوجي موضوع يدرسه وهو القدرات فوق الحسية «الحارقة» كالتخاطر والتنبؤ والجلاء البصري والاستشفاء وتحريك الأشياء والتنويم الإيجابي «المغناطيسي» وخبرة الخروج من الجسد... الخ، أما المنهج الذي يستخدمه هذا العلم فهو المنهج العلمي الحديث مع شيء من التطوير الذي تقتضيه طبيعة الظاهرة المدروسة وهذا هو الرد على من يريد أن يعرف «هل الباراسيكولوجي علم أم لا» فهو قديم في ظواهره وقدراته، جديد بمنهجه ووسائله وأساليبه، ويبدأ بالفهم والتفسير ويمر بالتنبؤ حتى يصل إلى الضبط والتحكم بالقدرات التي يدرسها.

125 للمزيد يمكن الاطلاع على: PSYCHOLOGICAL SUPERNATURAL OCCURRENCES, P. 49.

126 «الراسب الثقافي عنصر أو مركب ثقافي تغيرت وظيفته الأصلية بمرور الزمن بحيث أصبح استعماله مجرد اتفاق شكلي».

إيكلونكرانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكور، ترجمة حسن الشامي ومحمد الجواهري، (القاهرة: دار المعارف، ط2، 1973)، ص214.

محددا لاصطلاح الرواسب الثقافية سوى إشارته إلى المحددات السابقة، ويعد تايلور (Tylor) أبرز من وضع هذا المفهوم في مصطلح معروف في الأنثروبولوجيا<sup>(127)</sup>.

يعدّ فريزر من أبرز من أسهم في دراسة السحر والدين في الدراسات الأنثروبولوجية التطورية. فقد حاول الربط بين السحر والعلم اللذين يقفان موقف التعارض مع الدين، ولكنها يقومان على أسس ومبادئ منطقية واحدة تعتمد على تداعي المعاني وترابط الأفكار. ويرى أن عملية التداعي في السحر تتم بطريقة خاطئة، لذلك أطلق على السحر لفظ "العلم الزائف"<sup>(128)</sup>.

يقوم السحر عند فريزر على مبدئين أساسيين هما: الأول، أن الشبيه ينتج الشبيه؛ ويعني هذا أنك إذا صنعت دمية تشبه الشخص العدو مثلا وقمت بقتلها فإن هذا العدو سيموت وفقا لمبدأ أن "الشبيه ينتج الشبيه". أما المبدأ الثاني فهو استمرار التأثير المتبادل بين الأشياء المتصلة حتى بعد انفصالها عن بعضها البعض. فالأشياء التي كانت متصلة في وقت من الأوقات يؤثر كل منها في الآخر حتى بعد انفصالها.

يعتبر فريزر هذين المبدئين قانون السحر البدائي باعتبار ذلك ممثلا لموقف الرجل البدائي من العالم ونظرتة إليه. وفكرته في وضع قانون السحر قائمة على أساس ملاحظة البدائي وخبرته الطويلة مع ظواهر الحياة وأحداثها وتقلب الفصول؛ وهذه أسس مهمة في قيام العلم والتفسير العلمي. ومن هنا جاء ربط فريزر بين السحر والعلم.

ميّز فريزر بين السحر والدين على أساس أنّ الدين يشترط الاعتقاد في الكائنات الروحية أو الإلهية والأرباب في حين يتألف السحر من الأعمال والممارسات والشعائر التي تتصل بالكائنات الأخرى مثل الأشباح. ويعتمد السحر على عبارات وتعاويد وصيغ قد لا تكون مفهومة عند مستخدميها بخلاف الدين الذي يستخدم اللغة العادية السائدة في المجتمع. ويبدو أن فريزر اعتمد في هذا التفريق على الصورة الحديثة للسحر والدين، إذ لا نعلم عن مدى معرفة السحرة بالتعاويد التي يرددونها في تلك الفترة التي قيلت فيها؛ ومن هنا فإن هذا التفريق بين السحر والدين من جانب لغوي يبدو أنه ليس فرقا جوهريا بدرجة كافية.

على أن فريزر يرى أن السحر سابق للدين في الوجود بخلاف الرأي القائل بوجودهما معًا. فهو يرى أن السحر هو الذي مهد لظهور الدين وأن معظم الممارسات والطقوس التي تتصل بعالم الغيبات وبالكائنات ذات

127 على أن مصطلح الرواسب الثقافية يستخدم في الفلكلور بمعنى يختلف عن استخدامه في الأنثروبولوجيا باعتبار تلك الرواسب تمثل الآثار العتيقة البارحة، أو الآثار الثقافية القائمة التي لا يعرف أصلها أو مصدرها بالدقة الكافية. لمزيد من التفصيل ينظر:

MALNOFISKY, *A SCIENTIFIC THEORY OF CULTURE*, PP. 54-57.

128 James Frazer. *The Golden Bough: a Study in Magic and Religion*, (1st edition, 1890), PP. 17-22.

الصفات الخارقة للطبيعة هي في الأصل ممارسات وطقوس سحرية اتخذت طريقا إلى الدين الذي نشأ بعد ذلك<sup>(129)</sup>.

#### ٥- السحر والدين:

الأشياء المحرمة على فئتين، فقد تكون طاهرة وقد تكون نجسة، وإذا درسنا السحر وجدنا أن معظم محرّماته تستمد قوتها من الأشياء النجسة، ومن أمثال القاذورات والأوساخ والشعر والحيض والبول والعظام. وإذا تناول الساحر الأشياء المحللة عمد باديء ذي بدء إلى تنجيسها. أما الدين فهو على نقيض السحر، إذ المحرمات فيه أبدا طاهرة، فالكتب المقدسة طاهرة والمعبد طاهر والمسجد طاهر... وهكذا نستطيع أن نفرق بين الدين والسحر بقولنا إن الأول يستمد قوته من المحرم الطاهر والثاني من المحرم النجس.

لا جرم أن التمييز بين هاتين الفئتين من أدق المسائل التي تعرض لعلم الانثروبولوجيا، لأن مدار عملهما على التصورات المشتركة والأعمال التي بواسطتها يستغل الإنسان القوى المنتشرة في أرجاء العالم، زد على ذلك أن كل ديانة جديدة تنعت بالسحرية الديانة القديمة البائدة.

ويأتينا ماريت، لفرق بين السحر والدين، بما يكاد يقرب منه ما اقترحناه؛ فعند الول يشتمل على جميع الوسائط الطالحة، والثاني على جميع الوسائط الصالحة، للتقرب إلى ما فوق الطبيعة. أما المدرسة الفرنسية فتراعي في تمييزها القواعد العامة التي قررتها في شأن الفرد والمجتمع. يقول رينيه هوبير: «السحر جملة من العقائد مفادها أن بعض الطقوس، من إشارات وأقوال، لها القدرة على التأثير في الأشياء والكائنات، بل في استعدادات الفرد الخلقية، وما هو سوى استغلال أكثر ما يكون فرديا للقوى المبتوثة في أرجاء العالم، كما تؤمن به المنطقية الأولية»<sup>130</sup>. وهذا ما ذهب إليه العالمان هوبير وموس إذ عرفا السحر بأنه جملة من الطقوس السرية، الخاصة بالمنوعة، تمتاز من الطقوس الدينية بكون الذبيحة ليست من شروطها الأساسية.

وعليه، فإن ما يميز السحر من الدين هو أن الأول من الطقوس الخاصة الفرديّة، والثاني من الطقوس العامة الاجتماعية، أي أن الساحر يقوم بعملية في مصلحة فرد أو بضعة أفراد بينما الكاهن يخدم المجتمع بأسره.

#### ٦- السحر والمعجزة والكرامة:

إذا كان السحر يشير إلى تحكم الإنسان في ظواهر الكون والقدرة على التأثير فيها بالاستعانة بقوى غيبية معينة، فإن السحر يشترك مع المعجزة والكرامة في أنها جميعًا ظواهر غير طبيعية تنسم بأنها تخرق القانون

129 ينظر: FRAZER, *THE GOLDEN BOUGH: A STUDY IN MAGIC AND RELIGION*, PP. 67-71.

130 يوسف شلحت، نحو نظرية في علم الاجتماع الديني (الطوطمية-اليهودية-النصرانية-الإسلام)، تحقيق وتقديم خليل أحمد خليل، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، سنة 2003، ص 56.

الطبيعي للأشياء المادية. لكن الفروق بين هذه الممارسات يكمن في مصدرها؛ فالسحر يصدر من شخص يستمى ساحرا في حين أن المعجزة يأتي بها شخص يستمى نبيا والكرامة الصوفية تأتي كذلك من شخص يُستمى وليا<sup>(131)</sup>. وبناء على مصدر الممارسة يمكن تصنيف العمل على أنه سحر أو معجزة أو كرامة؛ فالنبي شخصية دينية تمثل وسيطا بين الله ومخلوقاته؛ أما الولي فهو شخصية دينية أقل مرتبة من النبي ولكنه وصل إلى درجات عالية من الصلاح فأصبح في موقع معين يتوسط فيه للمؤمن العادي مع النبي أو مع الله بحسب الاتجاه الصوفي الذي يتبعه.

يلاحظ أنه ليس ثمة فارق كبير بين الساحر والنبي والولي من حيث العمل إذا نُظر إليه مجردا من النزعة الأيديولوجية؛ لكن الساحر يعتبر مرفوضا والنبي مقدسا والولي مكروما وفق النظرة الدينية، وهو أمر مهم في تقرير سمات كل صنف. تجدر الإشارة هنا إلى أن هناك باحثين يرون أن طبيعة الممارسة الصادرة من الساحر والنبي والولي تُصنف في خانة السحر<sup>(132)</sup>.

وبسبب التداخل في هذه الممارسات والالتباس بينها فقد ذكر النهائي في كتابه جامع كرامات الأولياء أن الفعل الخارق ثلاثة أقسام: القسم الأول، هو أن يكون مع الدعوى، وله أربعة أصناف: الأول ادعاء الألوهية، والثاني ادعاء النبوة، والثالث ادعاء الولاية، والرابع ادعاء السحر.

والقسم الثاني هو أن تظهر خوارق العادات علي يد شخص من غير شيء من الدعوى ويفرق بين حالين، الحال الأول أن يكون الشخص صالحا ويسمى وليا وفعله من قبيل كرامات الأولياء. والحال الثاني أن يكون الشخص خبيثا مذنبا وقد أنكر المعتزلة جواز ذلك وإن اقره الصوفية<sup>(133)</sup>.

القسم الثالث هو أن تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردودا عن طاعة الله ويسمى ذلك بـ "الاستدراج". ويُعرّف الاستدراج بأنه «الخارق الذي يظهر من الكفار وأهل الفسوق»<sup>(134)</sup>.

يلاحظ من التعريفات السابقة التي تسعى إلى التفريق بين الممارسات المختلفة المنسوبة للساحر أو النبي أو الولي أنها لا تركز على طبيعة الفعل بقدر اهتمامها بالمصدر الذي تنسب إليه تلك الممارسة. وبناء على ما يتسم به المصدر من سمات يغلب عليها أنها سمات غيبية تتعلق بالإيمان والصلاح أو بالفساد والشر تكتسب تلك

131 يشار هنا إلى أن الآيات لله والمعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء ولخيار المسلمين. وقد سميت معجزات لإعجاز الخلق أن أتوا بمثلها؛ فمن أتى بذلك شيئا لغير الأنبياء فقد ساوهم بهم، والفرق بين المعجزة والكرامة أن الأنبياء مأمورون بإظهار المعجزات أما الولي فعليه أن يستتر كرامته. انظر: عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 57.

132 من الباحثين العرب القائلين بهذا الرأي، على سبيل المثال: سيد محمود القمني في كتابه النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة، ج3، (القاهرة: المركز المصري لبحوث الحضارة، ط1، 1999). وشفيق مقار كتابه السحر في التوراة والعهد القديم الذي اعتمد في بعض أفكاره على ماجاء عند سميغونديفيد في كتابه موسيوالتوحيد. يقول مقار: «إن موسى لم يكن سوي شامانا /ساحرا وأنه اعترف من السحر المصري ما اعترف». وفسر على هذا الأساس كل المعجزات الواردة في العهد القديم. وكذلك معجزات أنبياء التوراة والعهد القديم مثل "إيليا" و "اشعيا" وغيرها. شفيق مقار. السحر في التوراة والعهد القديم، (لندن: دار رياض الريس، ط1، 1990)، ص 149.

133 يوسف بن إسماعيل النهائي. جامع كرامات الأولياء، ص 46

134 الحفني، المعجم الصوفي. كما يوضح النهائي الفرق بين الكرامة والاستدراج بأن «معنى الاستدراج أن يعطيه الله كل ما يريد في الدنيا ليزداد في غيه وضلاله فيزداد عن الهلعا [...] والاستدراج أنواع عدة هي: الاستدراج والمكر والكيد والاملاء والاهلاك [...] وأن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة عند ظهورها عليه خوفا من أن تكون استدراجا من الله وامتحانا له. وإذا أدت الكرامات الفعل الخارق إلى غرور وفساد كان ذلك استدراجا لا كرامة».

الممارسات صفاتها التي تفتقر به عن غيرها. ومن هنا فليس مستغرباً أن يصنّف عمل معين على أنه سحر عند فئة معينة وفي الوقت نفسه يصنّف على أنه نبوة أو كرامة عند فئة أخرى لأن الفرق في التصنيف قائم على النظر إلى مصدر العمل لا إلى العمل نفسه.

## 2. الاعتقاد في الجن والشياطين:

### أ- الجن: الاسم والمعنى:

الجنّ (اسم جمع لكلمة "الجانّ"، ومفردتها "جِنِّيّ"، أو "جِنِّيّة")، وفي القاموس: المفرد يسمى جني والأثنى تسمى جنية، وهو من الفعل جنّ (بفتح الجيم وتشديد النون وفتحها) وهو بمعنى أستتر وغطى ومنها قوله في القرآن: ((فلما جن عليه الليل))، أي ستره ظلام الليل وغطاه، وهم وبحسب الأديان والأساطير العربية القديمة الجن مخلوقات تعيش في ذات العالم ولكن لا يمكن رؤيتها عادة، وهي خارقة للطبيعة، لها عقول وفهم، ويقال إنما سميت بذلك لأنها تستتر ولا تُرى.<sup>135</sup> فلم ينكر المعتقد الإسلامي على العرب وجودها، بل أفرد جزءاً ليس بيسير ليتحدث عنها في النصوص الدينية الإسلامية مزاجاً في كثير من الأحيان بين "الإنس" (أي الناس أو البشر) و"الجن".<sup>136</sup>

يعتقد الكثير من الناس بوجودها وبأنها هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، ولها قدرة على عمل الأعمال الشاقة، كما أجمع المسلمون قاطبة على أن النبي محمد مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس ولقد ورد ذكر ذلك في القرآن: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَأَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.<sup>137</sup> وهناك سورة كاملة في القرآن اسمها سورة الجن.

### ب- الشيطان: الاسم والمعنى:

الشيطان كائن خارق للعادة يعتبر تجسيدا للشر في كثير من الثقافات والأديان باختلاف المسميات وفي أحيان كثيرة عدواً وقيضاً للإله.<sup>138</sup> فهو ممثل الشر وكل ما ينطوي تحته من أفعال وأفكار في حرب مقدسة أو كونية مع قوى الخير وأدق المصطلحات الفلسفية لوصف علاقة الشيطان بالإله هي الثنوية. فالإله يمثل قوى الخير والنور التي تقاوم لأجل نجات الأرواح البشرية من شر الشيطان وأعوانه.

135 عمر سلجان الأشقر: عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، الطبعة الرابعة، الكويت، سنة 1974، ص 11.

136 موسوعة ويكيبيديا على الرابط: <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D9%86>

137 سورة الأنعام، الآية 19.

138 الشيطان - الموسوعة البريطانية نسخة محفوظة 29 أبريل 2015 على موقع واي باك مشين.